

85- المفارقة أن أركون يتهم بدوره بنفس ما يعيبه على التجارب العلمانية التي طبقت في المجتمعات الإسلامية، وذلك عندما يتهم بالإستشراق، لاعتماده على منهجيات "غربية" في دراسته للإسلام. لكن أركون يرى أن المنهجيات التي طبقت على اليهودية والمسيحية مسوغة إستمولوجيا في دراسة الإسلام، لأن الإسلام كالمسيحية، كلاهما يشتغل بالطريقة نفسها (تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 295). ولهذا السبب نراه يتحدث عن "نظام إنتاج مجتمعات الكتاب" (ن.م، ص 170) بوصفه نظاما واحدا سواء تعلق الأمر بالمسيحية أو اليهودية أو الإسلام، نافيا أية "خصوصية" لهذا الأخير. كما يرى أن لغة كتاب كل من الديانات التوحيدية الثلاث تقوم جميعها على المجاز والرمز. وقد بينا كيف فكك الفكرة القائلة بأن الديانة المسيحية تختلف عن الديانة الإسلامية في مسألة العلاقة بين الروحي والزمني، يعني بين الدين والدولة.

86- محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، م.س، ص 279.

87- محمد أركون، العلمنة والدين، ص 56.

88- ن.م، ص 41-42.

89- ن.م.

90- محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، م.س، ص 244.

91- ن.م، ص 272.

92- ن.م، ص 277.

93- ن.م، ص 280.

94- ن.م، ص 279.

95- ن.م، ص 281.

96- Mohamed Arkoun, Penser l'Islam aujourd'hui, op-cit, p.15

97- محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، م.س، ص 295.

# إشكالية المنهج في الخطاب الفلسفي قراءة سيميائية لـ "حي بن يقظان" لابن طفيل نموذجاً

أ/منصوري حوريت.

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

جامعة مولود معمري بتيزي وزو

## *Résumé :*

Le but de ce travail est de mettre en valeur la notion de méthode dans l'analyse des récits philosophiques. Il s'agit de dégager les principaux axes de l'analyse sémiotique qui atteste à la fois de la nécessité de la pluralité des visions épistémiques et méthodologiques dans la quête du signe et du sens et de l'esthétique du discours relatant le statut de la fiction de « l'enfant de la nature », avec tous les dispositifs socio-culturels qui ont engendré l'œuvre d'Ibn Thofail et ont influé sur son verbe. Ces grandes questions ont motivé nos recherches. Elles se résument comme suit :

1- A quels degrés peut-on instrumentaliser les méthodes des sciences du langage et notamment la sémiotique du discours dans l'analyse des textes à caractère philosophique (récit de Hayy ben yaqhdhan).

2- De quelle(s) manière(s) les méthodes d'analyse et de critique contemporaines parviennent-elles à comprendre et à interpréter les textes anciens ? Quelles relations ? Quelles interactions ? Quel dialogue ?

Cette problématique, de par son énoncé, se veut au carrefour des genres littéraires et philosophiques d'une part, et des différentes disciplines telles que la linguistique, l'histoire, la métaphysique, l'éthique, la mystique...d'autre part. Elle cherche à analyser les apports réciproques à l'analyse du discours aux sciences humaines et sociales et plus précisément à la philosophie en étudiant la façon dont l'analyse du discours mobilise les outils épistémiques et langagiers parce qu'il est important de comprendre à quel(s) modèle(s) précis ces méthodologies se réfèrent, tout en gardant une spécificité philosophique et une dimension extensive et universelle de l'approche triptyque de l'Homme dans son rapport avec lui-même, avec son environnement et avec l'Au-delà .

عرفت المناهج النقدية في ميدان العلوم والمعارف، بداية من القرن الماضي إلى يومنا هذا، موجة من الطروحات زعزعت الكثير من قناعات الباحثين ودفعتهم إلى إعادة النظر في أدواتهم التحليلية وفي طرق تعاملهم مع مختلف الخطابات الفلسفية وغير الفلسفية. وغدت نظريات اللسانيات، والسيمانيات، وتحليل الخطاب، وعلوم اللغة بصورة عامة تفرض نفسها على أغلبية الدارسين في مختلف التخصصات وتسطر أهدافا من بينها إثبات مصداقية الرهانات الحقيقية لبلورة منهجية سديدة لإعادة قراءة النصوص القديمة واستيعابها على ضوء المناهج النقدية واللغوية الحديثة، وهذه المقاربة المنهجية الحداثية لا تبعدنا من الحاجة إلى التراث على اختلاف مشاربه ومصباته لتحديد مختلف الرؤى وضبط الأصول الإستمية للمنهج في إطار الدرسين اللغوي والفلسفي. ولسنا نروم في هذا المقام الكشف عن كل القضايا اللغوية والفلسفية التي عاجلها الباحثون من خلال الموازنة والمقابلة فكثرتها تحول دون إحصائها؛ ولن نقدم عرضا مستفيضا لمضامينها من حيث تراكيبها المنهجية وآلياتها التحليلية فذاك أمر يتجاوز حدود هذه الصفحات.

إن الذي يعيننا بالدرجة الأولى هو الكشف عن كيفية تعامل أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي (1105م-1185م) شرحاً وتأويلاً لقضايا الكون، والعزلة، والعلامة، والفيض، ووحدانية العقل، والرمز... من خلال البحث في مؤلفه "حيّ بن يقظان في أسرار الحكمة المشرقية" (1)\* وطرح السؤال الجوهرى: كيف نقرأ "حيّ"؟ (2).

إن القصد في ابتكار وتوظيف مناهج جديدة في تحليل الخطاب عامة، والخطاب الفلسفي على وجه الخصوص هو تجسيد نوع من "القطيعة" مع "القراءة التيولوجية الإيمانية" المسجونة داخل السياج الدوغماتي بتعبير محمد أركون الذي يلمح لقضية معرفية أساسية هي استحالة بناء الحداثة الفكرية دون القطع مع إكراهات العقل الاختزالي (3) وضبط "منهجية التاريخ الإشكالي الذي يدرس بشكل نقدي كل فترة ويكتشف الحدود الفاصلة فيما بين ما يمكن التفكير فيه وما يستحيل التفكير فيه" (4).

هذه المشكلة وضعت الكثير من الباحثين في مواقف فلسفية وإبستمية عمادها ومؤداها أن الفلسفة في جوهرها فاعلية عقلية ومواقف انتقادية من الوجود في جميع تجلياته الثقافية، والدينية، والسياسية، والأخلاقية، واللغوية، والجمالية، والرمزية... التي تتطلب المنهج التحليلي النسقي القائم عن تفكيك الآراء الموجودة في فقرات النصوص الأصل (Textes sources) (5) ومقارنتها مع بعضها البعض ثم إعادة ربطها والتأليف بينها بطريقة حيادية، والتعامل مع الجهاز المفاهيمي وما يحتويه من حمولة فكرية وإبداع جمالي، ومقاربة المصطلح المستخدم كما صاغه الكاتب، بالإضافة إلى إمكانية توظيف التحليل السيميائي كتقنية لمعالجة النص الفلسفي عامة والوسيطي على وجه الخصوص. وهذا ليس بالأمر الهين، يقول آدم سكاف A. Schaff: "أهم المشاكل المنهجية هو تحليل كيفية تلقي المعارف القديمة، في ظروف تاريخية جديدة." (6)

وفي نفس السياق يرى محمد أركون أن دراسة الجانب المعرفي بمختلف مستوياته اللغوية، والتاريخية، والاجتماعية، والفلسفية، والدينية تخضع لطرق تعسفية أو مفرطة أو طفيلية، لأنه من الصعب تطبيق المصطلحات العلمية على النصوص القديمة يقول: " هذه العملية صعبة ومعقدة، لذا من الصعب الحصول على النتائج المرضية للوهلة الأولى". (7)

يقوم هذا المقال على فرضية مفادها أن ثمة عدة طرق لتحليل الخطاب عامة، والخطاب الفلسفي على وجه الخصوص، والأسئلة كثيرة تتعلق بماهية الخطاب، وخصوصيات الخطاب الفلسفي، وإمكانية استثمار واستغلال مختلف الميكانيزمات المنهجية وتوجيه البحث نحو انتقائية تراعى فيها خصائص " العقلية العلمية " القادرة على تقديم قراءة نقدية سيميائية لأهم الآليات التي أفاض الحديث عنها أشهر وأبرز السيميائيين ومنظري تحليل الخطاب وبلورة مواقف من قبيل ما يمكن تسميته بالمقاربة السيميائية - الفلسفة التي تهدف إلى إبراز عنصرين:

1- استراتيجية التواصل.

2- استراتيجية الإقناع.

ويقول جوزيف. كورتاس J.Courtés: " النقاش حول هذا الموضوع طويل وعريض، وكل العلوم الإنسانية لها ما تقوله في هذا الشأن". (8)

يعد مصطلح الخطاب عنصرا مركزيا في أغلب المجالات المعرفية: الأدب، والاجتماع، والسياسة، والإعلام، والفلسفة، والدين، والأخلاق وعلوم أخرى... التي انشغلت برصد خصائصه وبنياته وبتنميط normalisation إنتاجاته الكلامية واستراتيجياته التبليغية المؤسسة وفق قواعد خطابية- تواصلية، وهي- على مستويات مختلفة ومتفاوتة- تحاور " الأنا " عند محاولة استبطان الذات للنظر والتأمل، يقول إيدموند هوسرل:

من أراد أن يكون فيلسوفاً وجب عليه " مرة في حياته " أن ينطوي ويعود إلى ذاته ويغوص فيها ويستبطنها متجاهلاً ما يجري حوله ... وأن يحاول قلب كل العلوم المقبولة حتى الآن ويحاول إعادة بنائها " (9) هذا من جهة، ومن جهة أخرى تحاور " الآخر " فبالتالي تخلق ظاهرة التواصل وتكون الذات مفتوحة على شؤون الإنسان بصفة عامة في تجدها وتطورها لتحقيق معادلة هامة تتفاعل بمقتضاها الذات المخاطبة مع الذات المخاطبة، منتقلة من مقام وضعية (niveau du situationnel) إلى مقام تواصل (niveau du communicationnel) كما بينهما ب. شارودو P.Charaudeau حيث يرى أن " المستوى الأول هو المستوى المقامي الذي تتحدد فيه شروط عقد التخاطب المطابق لنوع الخطاب مثل : غاية الفعل، وهوية المشاركين، والموضوعات الواجب معالجتها، والجهاز الفيزيائي للتبادل : ( الديكور والأجهزة اللوجستية الإعلامية ... ) أما المستوى الثاني فهو المستوى الاتصالي، التبليغي الذي يطابق الفضاء الداخلي للمتكلم الذي يتبنى بدوره استراتيجيات متنوعة لأداء فعله اللغوي مثل (طريقة التدريس أو ومضة إظهارية ...)(10) ومن بين هذه المناهج أيضاً عمليات الإقناع، وشروط إنتاج المعنى، والعقد، والممارسة الخطابية، والتصديق، وفك الرمز، والتأويل، والكفاءة الاستراتيجية التي تنتظم حسب معايير محددة. (11) وهي:

أ- معيار اجتماعي وهو معيار العلاقات التخاطبية.

ب- معيار لغوي وهو معيار شكل لغة الخطاب.

ج- معيار هدف الخطاب الذي لا يتحقق إلا بضبط مقاييس استراتيجية أربعة (12).

1- الاستراتيجية التضامنية. 2- الاستراتيجية التوجيهية. 3-

الاستراتيجية التلميحية. 4- استراتيجية الإقناع.

فالإستراتيجية الخطابية في مدلولها الواسع تهتم بدراسة اللغة في الاستعمال الأمر الذي جعل ميشال فوكو M. Foucault هو الآخر يربط الخطاب بالإستراتيجية يقول : " ... بمستاعنا إظهار تشكيلة خطابية ما في فرديتها وخصوصيتها إذا تمكنا من تحديد منظومة تكون مختلف الإستراتيجيات الموجودة بها ... لا نجد موقعها بعيدا عن الخطاب في الغور الأبكم والصامت لاختيار أولي وأساسي في نفس الوقت " . (13)

مشكلة المنهج هي بلا شك من أقدم المشكلات وأعقدها، فهي أكثر القضايا اتصالا بالبحث في جميع المجالات هذا من جهة، ومن جهة أخرى تهدف إلى فهم العقد الاصطلاحية nœuds conceptuels بإقامة نوع من المشاركة الوجدانية بين الذات العارفة وموضوع المعرفة وهي مسألة إستمولوجية بالدرجة الأولى لأنها بحث لإنتاج المعنى. \*\* وهو في صميم التعريف المتفق عليه لقولة المنهج.

### ماهية المنهج :

**المنهج :** هو " متابعة مجهود لبلوغ غاية، هو بحث، دراسة .. طريق نصل من خلاله إلى نتيجة معينة. " (14) وهو مفهوم مستمد من الكلمة اليونانية Meta-Ados ويعني الطريق أو النهج الذي يؤدي إلى هدف ما، و"مجموع الإجراءات التي نستخدمها لاكتشاف الحقيقة أو إثباتها" (15).

استعمل أرسطو (384-322 ق.م) المنهج للدلالة على القواعد القياسية والاستدلالية المبنية على دعامتين: الأولى منطقية تبدأ بالمسلمات ثم تنتقل إلى طبقات الاستنتاج المنطقي الصارم لتنتهي بالتأج، والثانية دعامة إجرائية تبدأ بالمشاهدة الدقيقة، ثم تنتقل إلى استنباط التعميمات في سلم تتصاعد درجاته حتى تصل إلى المبادئ الأولية. (16) وتواصل الاهتمام بالمنهج في العصور الوسطى حيث ظهرت في نهايتها " حركتان بنائيتان

عظيمنتان في الفلسفة هما : الديكارتية [...] والكانطية [...] وتميزت كل حركة منهما باتفاق عام يتعلق بمبادئ المنهج" (17) وفي تعدد الخطابات، من حيث تاريخها، ومراحل تطورها، ومناهجها، واستراتيجياتها منذ الفلسفة اليونانية إلى الفلسفات الحديثة والمعاصرة مرورا بالفلسفات الوسيطة (سواء الإسلامية منها أو المسيحية)، وحسبنا القول هنا أن التطرق إلى الفترة الوسيطة الإسلامية بإسهاب لا يتحملة المقام هنا ويكاد يكون متعذرا نظرا للكلم الهائل من المادة العلمية التي تضمها والتي عرفت بصرامة تحليلية قلّ نظيرها. سنكتفي بالإشارة إلى مبدئين هاميين قامت عليهما الأسس الفلسفية التي غدت هذه الحقبة من الزمن وميّزت تصورات الفيلسوف ابن طفيل للمعاني وأشكال تحليلها بمختلف العلامات والرموز.

1- الاعتناء بالدين والنظر من خلاله إلى كل من الوجود والفكر على ضوء تعاليمه وعقائده.

2- ظهور بوادر الاهتمام بالفكر والنظر من خلاله إلى الوجود الفيزيائي والميتافيزيائي كموضوعين أساسيين للمعرفة بأجهزتها المصطلحية ونظامها العلاماتي - الرمزي، وبأطرها المنهجية، ومضامينها الإبستمية اللغوية والفلسفية.

وقد برزت هذه الأفكار - على غرار ما قام به فيتاغورس في الرياضيات والفلسفة (600 ق.م)، ديمقريطس في شرح تركيب المادة (400 ق.م)، وأرخميدس في الفيزياء (300 ق.م)، وبطليموس في حركة الكواكب (القرن الثاني الميلادي)... وعند كبار الفلاسفة في الشرق والغرب الإسلاميين مثل الحسن بن الهيثم (965-1040م)، وجابر بن حيان (721-815 م) ومحمد بن موسى الخوارزمي (780-850م) وأبو علي بن سينا (980-1037)، وابن طفيل، وابن رشد (1126-1198م)... ولا ننسى اهتمام أبي حامد الغزالي (1059-1111م) الذي دفعه تبحره في العلم إلى

الارتباب في أقوال المشائين وعاش تجربة حية حثته على التمعن في سنن مسالك المعارف وبدائعها. يقول داعيا إلى الشك: "ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات إلا ما يشك في اعتقادات الموروث [...] فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال" (18). هذه النظرة الثاقبة ليست سوى طريقة طبقها هؤلاء الفلاسفة والعلماء من أجل إيجاد مسلك سوي لفك القيود المنهجية التي تشل القدرة على التحليل وتقف عائفا في طريق التقدم بالخطاب من أجل أن يجد آذان صاغية من طرف المتلقي على مختلف الأبعاد والمقاييس اللغوية والفلسفية.

تعد اللغة من أهم مكونات الخطاب عامة، إلى جانب الرؤية السردية، والبنية الزمانية، والفضاء المكاني، والأشخاص، والوصف، والأحداث ... وهي كلها "مواد" تعبيرية تبني عليها الرسالة التي تحمل مضامين النص وأبعاده المرجعية. والتقييم الصحيح للغة الخطاب هو الذي يعتمد على دعائهم مقتبسة من المعارف العلمية بحيث يكون للكلمة معنى أدق وامتانة أوفر وبالتالي حظها من التلقي والقبول أكبر لأن الحقيقة الموضوعية كما يقول هنري بوانكاري هي "ما اتفق عليه كثير من العقلاء، ويمكن أن يتفق عليه الجميع". (19).

إنه من المفيد التذكير في هذا المقام بأن علوم اللغة واللسانيات "أحدثت ثورة شاملة في المنهاج في الدرس الأدبي الأوروبي [...] وفي العلوم الإنسانية". (20) والتساؤل عن الكيفية التي استطاع بها الإنسان أن يطوع جهازه اللغوي ليجعله يقوم بوظائف: المخاطبة، والفهم، والإقناع، والتلقي يعد سؤالا ابستمولوجيا بالأساس، وتساؤل الإنسان عن لغته قديم ولازال قائما و"التساؤلات تخص: فلسفة اللغة، والنحو، واللسانيات [...] ولا وجود لفلسفة مهمة دون أن تكون قد تساءلت عن اللغة والقائمة طويلة نذكر أفلاطون، وأرسطو، والرواقيين وأغستين، وديكارت [...] والأقرب منا

هيدقر وفيتقانشتين". (21) وهو التساؤل الذي يعد من أقدم فروع الاستعلام المنهجي [...] مع تاريخ غني ومثمر بالإنجازات. (22) فقضية المنهج أثرت في معظم التخصصات والمجالات وتستخدم في الألسنة للدلالة على العمليات العقلنة وعلى مجموعة ملتحمة من المبادئ أو الفرضيات الألسنية السيكولوجية، والبيداغوجية التي تستجيب لهدف محدد. (23)

في المجال السيميائي يفهم من المنهج " تلك السلسلة المبرجة من العمليات التي ترمي إلى تحقيق نتيجة مطابقة لمقتضيات النظرية " (24) أصل كلمة "سيمبوتيقا" أو "سيمبولوجيا" يعود إلى اليونان بتعبير ( Sémeion ) التي تعني " العلامة " و " Logos " الذي يعني الخطاب وبامتداد أكبر فالسيمبولوجيا هي علم العلامات. (25). و يضيف أ. لالاند العنصر الاجتماعي بناء على رأي ف. دي سوسير يقول : " علم يدرس حياة الإشارات والعلامات في صميم الحياة الاجتماعية وهو يشكل جزءا من علم النفس الاجتماعي، وتاليا، من النفسانيات العامة " (26).

إن الاهتمام بالمنهج السيميائي يقربنا من موضوعات الخطاب الفلسفي ومقولاته التي تحتاج إلى فهم دقيق ودراسة في عدم تجانسها بل في تعارضها مع الخطابات الأخرى، بالإضافة إلى النظر في دراسات الخطاب التي " وسعت من دائرة النظر في المعاني ... بل تجاوزت هذا الإطار إلى نطاق أعمق وأرحب، هو نطاق العلاقات غير الكلامية أيضا " (27) وتندرج هذه الدراسات سواء في الخطاب الفلسفي، أو الأدبي، أو الإعلامي، أو الأخلاقي ... فيما يمكن تسميه بإبستمولوجيا اللغة لأنها تفصح عن شكل جوهر الخطاب ومضمونه المعرفي في مختلف المعاني والوظائف التي تؤديها اللغة في النص. وتبلورت هذه الأفكار بشكل واضح مع العمل المتميز الذي قدمه ف. دي. سوسير الذي يعد أول من أعطى للغة القالب الابستمي - المنهجي المحدد. (28) بعد أن سطرت بواده الأولى من طرف فلاسفة اليونان إلى المبدعين

في النثر الفني، والخطابة، والبلاغة من شيشرون وكتابه: (Rhétorique) إلى القديس أو غستين وكتابه: (De doctrina christina) وغيرهما... وصولاً إلى أعمال اللسانين الذين اشتغلوا في حلقة، براق (Prague) وعلى رأسهم رومان جاكسون (1896م-1982م) من خلال رسمه للمخطط التواصلي. (29)

إن تطبيق المناهج النقدية واللغوية الحديثة على اختلاف مشاربها، وأسسها، ومصباتها يدخل في إطار الحقول المعرفية التي تهدف إلى اتقان السؤال الفلسفي بالتعامل اللغوي السليم والانفتاح على النصوص التراثية المتنوعة وضبط مختلف تأثيراتها على الفهم والتأويل. ومن بين هذه المناهج نذكر على سبيل المثال لا الحصر: البنيوية، والتوظيفية، والتفكيكية، والتداولية، والسيمائية... ونمو هذه الاتجاهات - كل في مجاله وحدوده المعرفية - يعني لا محالة الاهتمام بالتحديدات والمقاييس المنهجية في صورها المختلفة؛ هذا، رغم وقوف الكثير ضدها على أساس أنها مستوردة، تابعة للغرب ولا تصلح للمعالجة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعد استخدامها نوعاً من الحفر في أعماق السبل المهيمنة في الدرس اللغوي النقدي الراهن من أجل ضبط طرائق إنتاج الخطاب وسبل استكناها واستجلائه. وعليه فتعدددها هو دليل تعدد الرؤى والاستراتيجيات، وتباين المصطلحات والمفاهيم، وهذا الثراء يفتح أفق المسألة المستمرة من أجل معرفة حقائقها ومرجعياتها، ومدى قدرتها على التعامل مع الخطاب مهما كانت طبيعته ومهما كان سياق إنتاج دلالاته المحتملة وتمفصلات معانيه التي تعد جانباً مهماً في البحث. والسيمائية في " معناها الأكثر بدهة هي تساؤلات حول المعنى. " (30)

نحاول أن نوجه اهتمامنا نحو القراءة السيميائية لما لهذا التوجه اليوم من بريق علمي - فلسفي ولغوي على السواء. وهي "قراءة كمنشآت سيميائية -

نشاط لبناء المعنى - وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن السيرورة النفسية - المعرفية للقراءة، كما تظهر في الواقع [...] وتطمح إلى إعادة بناء بطريقة متجانسة (أي

عن طريق ميتالغوية معرّفة) مختلف طرق تخطيط الأنظمة الدلالية بناء على هذه المواد (Objets) الملموسة وهي بمثابة الآثار الواضحة والطريق الموصول إليها أي إلى: النصوص. (31) وغياب مثل هذه الرؤية المنهجية كسبيل للانفتاح على قضايا العصر وولوج عالم المعارف في الكتابات عامة والكتابات التراثية على وجه الخصوص، له أثر سلبي في مقاربتنا لنص مثل نص "حي بن يقظان" لابن طفيل كفضاء إبداعي وتراثي، نحاول أن نستنتقه لنكشف تواطؤاته ونفتح مغاليقه. فهو خطاب جامع لمضامين ودلالات عدة : ابستمية ولغوية .

إن استخدامنا لمفهوم "النص" تارة ومفهوم "الخطاب" تارة أخرى لا يعد تناقضا بل نعتبرهما متداخلان ومتكاملان "الخطاب في مجمله يتضمن بالضرورة مفهوم "النص" الذي يعد سيما (Sème) مهما في دلالة الخطاب". (32) وفي محاولتنا هذه نستعين بهذه القراءة السيميائية للخطاب لأنه "حقل منهجي (ابستمولوجي) وفي الوقت نفسه يعتبر قيمة نقدية يساعد على تقييم المؤلفات". (33) وهذا ما سماه إ. هوسرل (1859-1938م) "الوعي في القراءة" مع ما تحمله مقوله الوعي من فكرة القصدية، وفكرة الإيوخية Epoché (34) التي يعني بها إ. هوسرل "الوضع بين أقواس" والتوقف عن اتخاذ أي موقف سواء أكان بالإثبات أو بالنفي أو موقفا وسطا بينهما. وهذا السبيل أقرب الحقول المعرفية إلى تحليل الخطابات الفلسفية نظرا لكونها تبحث في العلاقات بين المدلولات وترصد تداعيات الأفكار المتعاقبة، وتفك الرموز الخفية وتقتنص المعاني الكامنة في الطاقة اللامتناهية في فقرات "حي" المفعمة بالإشارات والرموز التي تخص الأحداث، والأشخاص وأسمائهم، والأزمة، والأمكنة، والمشاعر والأهواء والإشكالات الفيزيائية والميتافيزيائية وحتى عنوان القصة "حي بن يقظان" على اعتبار أن مضمون هذه القصة الفلسفية هو - في آخر تحليل - نظام سيميائيومادته الجوهرية في التبليغ هو اللغة، وميزة كتابة هذه اللغة الخاصة تعد دينامية حية

تملك صفة الاستمرارية وصفة التغيير أو التغيير وهو ما يسمى "السيرورة (Processus) أو المسار وهي "سلسلة من الظواهر تتسم بوحدة معينة أو تتجدد وفقا لنظام معين، يقال المسار بنحو خاص على الظواهر الفيزيولوجية أو النفسانية أو الاجتماعية وبنحو أندر على الظواهر الطبيعية".(35)

والعنصر الأساسي في هذه السيرورة هو بلا شك "الإنسان" المتمثل في شخصيات البطل "حي" وآسال" و"سلامان" وسكان الجزيرة المعمورة ، وهو عنصر يمثل الدعامة الأساسية من دعائم الاستمرارية في الاتصال بين الباث والمتلقي، والتغيير في الانتقال بطريقة منظمة من معلومة إلى أخرى ومن حدث إلى آخر بشكل متسلسل سواء تعلق الأمر بالأفكار والأعمال الطارئة أو العرضية (contingents)، أو الحثية (attendus)، أو الضرورية (nécessaires) وهذا نظرا لمكونات القصة العلامية التي تعد الميكانيزمات الحية التي تشتغل فيها مجالات الحدس، والحس، والوجدان، والاتصال... في سياق التفاعلات المكانية - الزمانية في مجالات شتى : دينية، واجتماعية، ولغوية... وحتى التفاعلات في لحظات الانعزال والتصوف كما هو الشأن ببطل القصة "حي". أما عن الفيلسوف ابن طفيل الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي وهي فترة تمثل غلبة الموحدين أيام السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي (1184م-1198م) و"كان ممن صحبه من العلماء المتفنين أبو بكر محمد [...] كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة".(36) إلا أن هذه الفترة تميزت بالصراع السياسي والفكري واشتدت الخصومات العلمية بين الأشاعرة، والمعتزلة، والحنابلة، والجبرية، وانتشرت رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء(القرن العاشر) وشاعت الآراء المتضادة وتعددت الطوائف في مجتمع تسوده "حالة الفوضى" état anomique بتعبير أميل دوركهايم إلا أنها "فترة مفعمة بالنشاط العلمي والحيوية الثقافية، حيث عني بالأطباء [...] والشعراء، والفلاسفة".(37) وقد قدم ليون قوتيه L.Gauthier (38) معلومات وافية ومهمة فيما يخص

حياة فيلسوفنا وأعماله اعتمادا على ما جمعه ميخائيل الغزيري M. Casiri؛ واعتبر نص "حي" أدبا فلسفيا جدليا تارة ورمزيا مُلتبسا تارة أخرى. (39).

تأثر ابن طفيل بابن باجة (ت 1138م) رغم تصريحه بعدم لقائه (40) وذكر بن أبي أصيبعية أن لابن رشد مراجعات وبحوث تبادلها مع ابن طفيل (41). في حين أشار المؤرخ لسان الدين بن الخطيب إلى أن لابن طفيل كتابين في الطب (42) وفي هذا الجو السياسي والثقافي والاجتماعي كتب ابن طفيل قصته على أسس قوامها التمثيل والنظر ليس فقط لتوظيف النص فنيا وإنما ليستمد شرعية البناء النصي الجديد ضمن ما اصطلح على تسميته بـ "القصة الفلسفية".

## 1- دراسة سياق قصة "حي" وتحديد التقنية اللغوية :

قام ابن طفيل بمزج بين أفكار في غاية من العمق والتجريد فلسفيا ومن الجمال والفن أدبيا للتأثير على القارئ لأنه يعلم أن الوصف العقلاني المحض لا يؤدي الوظيفة خاصة عند "العامة". يقول: "فهذا لا يمكن إثباته على حقيقة أمره في كتاب... لأنه إذا كسى الحروف والأصوات وقرب من عالم المشاهدة لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال... قد يتعذر وصفها...". التحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر. "غير أن العبارة في هذا الوضع قد تضيق جدا". (43) فالرسالة في عمقها المجرد موجهة إلى ذوي الفطنة الفائقة وهم الخاصة، أما العامة "فلا سبيل لهم إلى الحكمة... وقد غمرتهم الجهالة" (44) ولم يخرج من الأسلوب التقليدي للرسالة الفلسفية فهي تبدأ بـ "سألت أيها الأخ... والسائل قد يكون شخصية وهمية أو قارئ أراد ابن طفيل صديقا حميما. ويختمها بـ "السلام عليك أيها الأخ...". وفي مضمون الرسالة يترك لنفسه المجال الواسع للإدلاء بأرائه والإبداع في مواضيع شتى ويسوق معه المخاطب ليعرفه بمغامرات "حي" في

أطر زمانية ومكانية مختلفة وفي قالب فكري ولغوي متميزين، يجمعهما في خطاب أقل ما يقال عنه أنه بيان خطابي غني سلط الضوء بعناية فائقة على مجموع قضايا العصر، حول هذه النقطة بالذات تردّ سيمون دي بوفوار S.De.Beuvoir على الذين يرفضون العمل الفني للتعبير عن أفكار فلسفية: التفكير الوجودي لا يعبر عن نفسه من خلال البحوث الفلسفية والدراسات الفينومينولوجية فحسب بل يلتجئ إلى الروايات والقصص والمسرح يلتمس فيها تعبيراً حياً وخصباً عن شتى تجارب الإنسان الوجودية بوصفه كائناً ميتافيزيقياً". (45)

ينتمي الخطاب الفلسفي إلى مجال الظواهر الفكرية والمعرفية، ويخضع مضمونه لمعيار الصدق أو الكذب مستخدماً لغة التجريد للحديث عن الإنسان، والميتافيزيقا والمنطق... بينما ينتمي الخطاب الأدبي إلى مجال الظواهر الجمالية الفنية، بوصفه خطاباً إبداعياً يتخذ من طريقة التعبير وجمالية الأسلوب ركيزة أساسية تعتمد على اللغة الوصفية التبليغية والتشويقية معيارها الذوق. وفي قصة "حي" يهمننا البحث عن الجهاز والعلاماتي واللغوي المنتج للدلالة أو المعنى لمعرفة ما يضيف النوع القصصي للخطاب الفلسفي.

ومهما يكن من أمر فإننا نلاحظ اختلافاً بينهما من الناحية النظرية إلا أنهما متفاعلان ومتقاربان بصورة مختلفة وبصيغ شتى حيث نجد ههما من الناحية التطبيقية يتوفران على مقاييس الخطاب بشكل عام: (اللغة، الحدث، الشخص، الاتصال، علاقة المرسل بالمرسل إليه، المحمول بالموضوع، الزمان بالمكان...) وبالتالي لا يمكن أن نقول أنهما مختلفان ومتضادان بشكل قطعي، وفيما يخص المشكلة الاستمولوجية للدراسة المقارنة بين الخطابين "لم يتم الحد الآن الحصول على هويتها" (46) إلا أن الحوار dialogue كنوع من الأنواع التخاطب "شغل مكاناً متميزاً في التفكير في أنماط الحوار الفلسفي منذ أفلاطون" (47) إننا نلتزم الحدود الضيقة في دراسة هذا الجانب لأننا لا

نستطيع أن نعطي المسألة مداها(48) إلا أننا نشير إلى أن دراسة سياق "حي" يتم ضمن علاقات مختلفة نذكر منها اثنتين:

1- علاقات دلالية ضمن حقل الكلمات التي تدل على عالم الحيوان، أو عالم النبات، أو العناصر الأربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار، وأجسام من جمادات وأحياء... (49).

2- علاقات التركيب التعبيرية التي تتحدد عند تعهد الكلمات بخلق نظام علاقات مبني على الطابع الخطي (المنطقي) *caractère linéaire* للغة حيث تعمل على تفادي التكرار وتحترم تسلسل الأفكار والمعاني وتتابع الأحداث ضمن ما يمكن تسميته في قصة حي ب: "الخطة السبعية لمسلك حي" تبعا للبنية والتركيبية العامة للقصة التي تنقسم الى سبع مراحل، وتعرف على أنها "تمثيل الحدث وهذا الأخير هو بمثابة التغيير والانتقال من حالة (أ) إلى حالة (ب)" (50) في إطار ما يسمى بالبرنامج السردي (Le programme narratif) "الذي يعني تتابع الحالات (états) والتحويلات التي تترابط تبعا للعلاقة بين الذات والموضوع  $\Leftrightarrow$  sujet (objet) (51)". وهو أيضا مقياس ابستمي محض. وعندما ندرس مكونات الحكى في قصة "حي" نصف الفروقات التي تظهر في النص في ديناميته أي في حالة تطور الأحداث وهذا مقارنة مع الفروقات التي تظهر في النص في حالاته الستاتيكية (تتابع تطور شخصية البطل)، وعندما نصف المكونات الحكائية للخطاب نختار بالضرورة "وصف الفروقات التي تظهر في تتابع النص" (52).

إن النص الذي نحن بصدد مقارنته سيميائيا يظهر من دون شك قوة وعمق الأفكار المتميزة تهدف إلى نتائج خطابية *discursifs* وتواصلية *Communicationnels*؛ وتتم المقاربة السيميائية لـ "حي" ضمن وحدات مختلفة تقربنا من أسس الدرس اللغوي في التحليل السيميائي للخطاب الفلسفي، والحديث عن السيميائية ومضمونها وأدواتها يستلزم منا أن نقف - ولو باختصار - عند نقطة جوهرية نبه إليها الكثير من الباحثين، وهي التفرقة

بين السيمياء أو السيمانطيقا والسيميولوجيا، فكلاهما يعود إلى الكلمة اليونانية « Sémeion » التي تعني علامة و«لوقوس» يعني الخطاب و"كلمة خطاب تحولت حتى صارت تعني «العلم» ، وهكذا أصبحت السيميولوجيا تعني علم الأصوات أو علم الإشارات أو علم الرموز." (53) والمنهج السيميولوجي منهج، وتصور، ونظرية، وعلم لا يمكن الاستغناء عنه لما أظهر عند الكثير من الدارسين والباحثين من نجاعة تحليلية وكفاءة استراتيجية في مقارنة النصوص سواء بالمنظور الفلسفي كما برزت عند ش.س. بيرس أو بالمنظور اللساني كما برزت عند ف. دي سوسير. إن استخدام السيمياء لا محالة كان ولا يزال موضوع اهتمام أغلبية الباحثين يقول إ. أمبرتو: "... فلو قمنا بإعادة قراءة جيدة لأدركنا أن كلا من الفلاسفة الكبار في الماضي (والحاضر) قد قاموا - على نحو ما - بصياغة سيميائية معينة. فلا يمكن أن نفهم لوك Locke من دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن المعرفة الإنسانية بأكملها - كما يقول في الباب الأخير من الدراسة \*\*\* - تتخلص في الفيزياء، والأخلاق، والسيميائية (54) يشير ج. لوك إلى أهمية اللغة ودورها في حياة الإنسان باعتبار أنها تلك الرموز الاصطلاحية التي اتفق عليها الأفراد ليعبروا بها عن المعاني (55). و"الوجود الإنساني باعتباره وجودا للمعنى وفي المعنى أنتج مجموعة من المفاهيم المعبرة عن هذا المعنى كونه الغطاء للممارسة الإنسانية" (56) وعلى هذا الأساس فإن كل تساؤل عن المعنى والدلالة هو في آخر تحليل "تساؤل عن معنى التاريخ" (57) والاستعانة باللغة من أجل إقامة همزة وصل بين الإنسان والإنسان، والانسان والعالم، وبين الفكر والمادة. فهي-أي الدلالة- " فرع هام من فروع علم اللغة له علاقة بمعاني الكلمات معجميا وما يلحق به من مجالات علمية نظرية وتطبيقية." (58) حيث " يهتم السيميائي بالتطبيقات ما دامت تنتج معنى أو بالأحرى تنتج المعنى الخاص بها." (59).

هذه التحديات تساعدنا على تعيين الوحدات المشكلة لـ "حي" في إطار المقاربة السيميوية- الدلالية، يذكر محمد أركون(60) البعض منها، حاولنا استخراج ما يناسبها من نص "حي".

## 2 - الوحدات النصية المستخدمة

1- وحدات مقارنة (تشبيهية) Unités comparatives : نظرا لصعوبة النفاذ إلى لب المواضيع خاصة تلك التي لها علاقة بالدين، استعار ابن طفيل هذا النوع من الكتابة للإدلاء بآرائه يقول: "عندما أفاق "حي" من حالة تلك التي هي شبيهة بالسكر ... وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق"(61) وهو تلميح لقول أبي زيد البسطامي(ت 878 م) وقول حسن بن منصور الخلاج (ت 922 م) الذين لم يذكر اسمهما يقول ابن طفيل: "حتى إن بعضهم قال في هذه الحال " سبحاني ما أعظم شأنني" وقال غيره أنا الحق!"(62). ومن الوحدات التشبيهية ما قدمه ابن طفيل واصفا حي بن يقظان عند مشاهدته لواجب الوجود : وإن ذلك بمنزلة نور الشمس"(63) و" كأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة" (64) "وتنبه من حالة تلك التي كانت شبيهة بالغشى". إن الدنيا والآخرة كضرتين إن أرضيت أحدهما أسخطت الأخرى"(65).

2- وحدات سردية Unités narratives : رسم من خلالها ابن طفيل تاريخا موجزا للفلسفة الإسلامية ونقد بعض الفلاسفة وشكك في المشروع المعرفي والاجتماعي القائم في عصره.(66)

3- وحدات ديكالتيكية : قدم ابن طفيل نظريات اشتد النقاش حولها مثل نظريات: الخلق، والكون، والفيض، ووحدة العقل إما بطريقة جلية مباشرة أو بطريقة مستترة غير مباشرة.

4- وحدات وصفيّة Unités démonstratives : وهي تابعة للسيرورة التي سبق الحديث عنها خاصة ما يمكن تسميته بالسيرورة المعرفية processus cognitif " وهي تعبير عن علاقة تناسب الذات مع

الموضوع" (67) والتي كانت موضوع بحث وطلب quête من طرف "حي بن يقظان" رغبة منه في كشف الحجاب وإزالة الغشاوة عن الطبيعة والنفاذ إلى أسرارها، واصفا في كل مرة وبطريقة متميزة حالة المشاهدة التي توصل إليها. (68)

#### 5- وحدات ميتافيزيائية ou Unités lyriques

**métaphysiques:** وهي تشغل في قصة "حي" حيزا واسعا وزمنا طويلا رغم أن موضوع هذه الوحدات هو فكرة الألوهية التي يعتبرها ابن طفيل منزهة عن الجسمية وعن الزمان والمكان لأنها تتناول الوجود الطبيعي وماهيته الأولى. وأمام هذه المعضلة المتمثلة في صعوبة معاشتها من طرف الإنسان العادي- لأنها تخص الفئة الخاصة الفائقة الفطنة، ذات العقول النيرة (أولو الألباب)- تساءل ابن طفيل على لسان بطله عن كيفية التعبير عنها، وكيفية تفسيرها. كانت هذه الأسئلة سبب قلق "حي" في مشواره المعرفي يقول: "تفكر في العالم بجملته هل هو شيء يحدث بعد أن لم يكن؟ وخرج إلى الوجود بعدالعدم؟ ... وما زال يتفكر عدة سنين فتعارض عنه الحجج ولا يترجح

عنده أحد الاعتقادين على الآخر". (69) هذا مثال من بين الأمثلة التي تحتويها الوحدات الميتافيزيقية حاملة معها دلالات لغوية، وفلسفية، وميتولوجية، ورمزية نجدها بين ثنايا دراساته للمادة ~ الصورة، والكائنات الحية ~ الجامدة، وتفسيراته للحقائق الأولية للبحث في فحوى الفلسفات الأولى من يونانية، ورواقية ومشرقية وصوفية إشراقية... وفكرة تعالي عالم الظواهر للسماح للنفس من الاتصال "بروضة الإله" Le havre de la divinité (70)، وفكرة أصل ولادة حي، وتقسيمه للعالم إلى علوي وسفلي، وصفات الله، وخلود النفس، و"ثنائية العقل ~ الدين... (71).

#### 6- وحدات مزدوجة المعنى (Unités ambivalentes): السبب

في استعمالها راجع إلى السبب الذي ذكر بالنسبة لاستعمال الوحدات المقارنة إضافة إلى ارتباط موضوع الازدواجية بمواضيع كثيرا ما اشتد الخلاف حوله

في الثقافة العربية باعتبارها أدب الأضداد بتعبير جاك بارك J.Berque ، ولويس قاردي L.Gardet ومحبوب بن ميلود وغيرهم (72) الذين كتبوا في مواضيع الضد في أطر مختلفة مثل البحث في "طبيعة الأضداد في طب ابن سينا" وهو مقال لـ ج.ب. شارني (73) J.P Charnay حيث بين أن طب ابن سينا مبني على أساس تفرعات ثنائية dichotomie بداية من مكونات عالم الكون والفساد وعناصره الأربعة، وثنائيات الفصول، وثنائية الداء~الدواء وهذه الثنائية بالذات تذكرنا بفكرة "الفارماكون pharmakon أو العقار: العلاج/ أو السم" (74) وتناول أيضا هذا المرجع الهام (الازدواجية في الثقافة العربية) موضوع "ابن رشد والأضداد" (75) حيث بين جاك بارك كيف تمت إقامة البناءات الاجتماعية بناء على التفرع الثنائي العامة~الخاصة، فبالنسبة إليه تفهم الخاصة مرامي الدين على نور حقيقة عليا بالمقارنة مع العامة التي لا تدرك إلا ما هي مهياة لفهمه.

ومن المؤكد أن البحث في الأضداد في الثقافة العربية عامة وفي الفلسفة واللغة على وجه الخصوص تعود إلى المقولات التي بنيت عليها الاستمي العربية ومن بينها الظاهر ~ الباطن (76) وعليها ترتبت مختلف المناقشات السياسية، والاجتماعية، والدينية، يقول ابن طفيل: "هذا والعالم المحسوس منشأ الجمع والافراد وفيه تفهم حقيقتهما وفيه الانفصال والاتصال والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف... " (77) هذا يجرنا للحديث عن المقولات والنظريات الثنائية من المنظور السيميائي.

### 3- سيميائية الثنائيات في نص "حي" :

توجد في نص "حي" ثنائيات مبنية على الترتيب الزوجي « binaire » لمفاهيم هي متضادة مثل جسم ~ نفس، والحياة ~ الموت، وتزامن ~ تعاقب، والمادة ~ الصورة، وأيضا المحسوسات ~ المدركات (Le sensible et l'intelligible) وهما مرتبطان حتما داخل الفعل أو النشاط (acte) الذي يجمع خطي اللغة (plans du langage) (78) وهما

بمقابلة ما سماه دي سوسير "الإشارة اللغوية التي تربط بين الفكرة والصورة الصوتية" (79) ولهما "صفتان جوهريتان تابعتان لمبدأين : الدال والمدلول" (80) وهذه الثنائيات هي بمقابلة آليات ساعدت على تفسير الوجود وهي تشكل عموماً ثلاثة أنواع من الثنائيات :

أ- الثنائيات الأنتروبولوجية التي تفسر الوقائع الإنسانية بوجود حقيقتين في الإنسان هما ( الروح والجسد) تعتبران موضوع بحث البطل "حي" في سيرورته المعرفية.

ب- الثنائيات الاستمولوجية التي تمثل سيرورة المعرفة في قصة "حي" والتي تعد في آخر تحليل تعبير عن علاقة تناسب الذات مع الموضوع كما سبق ذكره ، هذا من جهة، و اللغة مع الفلسفة والمعرفة من جهة أخرى. يقول آدم سكاف: "يعتبر دور اللغة في هذه السيرورة مشكلاً فلسفياً رغم اتصاله باللسانيات [...] ويهتم الباحث في نظرية المعرفة بتحليل سيرورة المعرفة مع الأخذ بعين الاعتبار وظيفة اللغة في هذه السيرورة". (81)؛ توصل "حي" من خلالها إلى:

1- ضبط معلوماته الأولية والتعرف على أنه (L'Ego) بالمفهوم الديكارتي).

2- التعرف على العالم العلوي.

3- تعلم اللغة

4- اللقاء مع أفراد جنسه في الجزيرة المعزولة (آسال) أولاً، ثم في الجزيرة المعمورة (سلامان وبقية المجتمع) ثانياً.

ج- الثنائيات الأتيقيّة التي تعد أحد الميادين الكبرى مع علم الجمال في التحليل وبناء القيم والسميائية. (82) ويتم من خلالها المقابلة بين تصرف الذات يسميها ج. فونتانييل "فاعل الأتيقا (l'actant de l'étiq) الذي يتصرف تبعاً لشروط من وجهة نظر سيميائية. (83) هذا من جهة،

ومن جهة ثانية تبعا للقيم التي تعطي معنى للنشاط المقدم، ومن جهة ثالثة، تبعا للواجبات بجميع أشكالها: في المعرفة، والدين، والعلاقات الاجتماعية الخ ... والتصرف الحر وما تقتضيه من قدرة على الاختيار بين هذا وذاك. ولهذا تعد هذه الثنائية أكثر تعقيد وحساسية من الأوليتين لما تحمله من رهانات وتحديات ورمزية. وعلى هذا الأساس برز نوع من الكتابة الخاصة كما يقول ابن طفيل نفسه: "... وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد في كتاب ولا يسمع في معتاد خطاب." (84) أبرز من خلالها أصالة إسهامه حيث كشف الكثير من المعاني الفلسفية والدلالات الرمزية في خطاب متكامل كان له رواج كبير في أوروبا في القرن الثامن عشر، ومن خصائص هذه الرمزية: الرمزية الأولى التي نبدأ بها والتي تسمى سيميائية أسماء شخصيات القصة تتعلق باسم البطل الذي هو في نفس الوقت عنوان القصة "حي" يرمز إلى العقل الفعال أو النفس الملكية المفكرة. وهو عقل خالد، وحي لا يتغير ولا يهيم. له محتوى دلالي لأنه مرتبط بعنصر الحياة بالمقارنة مع الموت، لأن "حي من حي. حياة، وحياة تحية أو قال له حياك الله أي أطار عمرك وحمية الصبي معناه غدها والحيا يعني المطر أو النبات الخصب وحيوي والحيوان كل ما فيه حياة ناطقا كان أو غير ناطق" (85) و"ابن يقظان" و"اليقظان" يعني بالفارسية Yazet ومعناه الإلهية (86) و"ألحي"، لأن العقل يستلزم الحياة... وابن يقظان لأن العقل ناتج عن الذي لا ينام (أي الله) عن طريق الفيض (87) ويعني أيضا: تجسيد العقل الفعال في الإنسان (88) وفي كل هذه المعاني نجد عنصر الحياة يشكل الطابع الديناميكي عكس اللاحياة (الموت) التي تشكل العنصر الستاتيكي الجامد، واليقظة تشكل أيضا الطابع الحيوي، الفطن، عكس اللايقظة (نائم، غافل، شارد الذهن) لهذا يعتبر "حي" ابن طفيل مختلفا عن "حي" ابن سينا الذي يعد مثالا للعقل المجرد.